بسم الله الرحمن الرحيم

رؤى العالم عند الإمام علي عليه السلام
الخطبة الغراء " أنموذجا تطبيقيا "

أ . م . د . علي شاكر الفتلاوي
قسم علم النفس / كلية الآداب
جامعة القادسية

مدخل إلى مشكلة البحث :

ولد علي بن أبي طالب ، فردا يعيش إنسانيته ، في فلوات عظيمة الاتساع ، لا يكاد ينبت فيها نبات ، يسودها الظمأ والقيظ .... ليصير الواحة التي انبثقت عنها رؤى حياتية أصيلة وإبداعات فكرية مثمرة ، وكأنه لم ينشأ في إطار تلك البيئة ونطاق ذلك المجتمع ، إذ تمثلت في فكره رؤى متكاملة للعالم ، ببعدها الأزلي والأبدي .

كانت حياة علي بن أبي طالب عليه السلام ضرورة من ضرورات العليات الطبيعية الدالة على وجود واقع موضوعي للعالم يشير إلى توافر عليات عقلية حتمية ، يتمثلها نظام العالم المخلوق إلهيا ويسير في هديها – تجريبيا – فيما بعد . لقد جلت لنا تجربة حياة علي بن أبي طالب عليه السلام المعيشة ذلك الواقع الموضوعي الحتمي للعالم ، الذي أفاض بدوره عللا لأسباب تفجرت عنها ظواهر ومواقف واتجاهات إنسانية امتدت طيلة القرون الماضية ومازالت أدوارها تستشرف المستقبل الإنساني .

ولقد شكل ذلك التمازج الحثيث بين علي عليه السلام وأنموذجه الحي الملاحظ الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، مفصلا عظيم الأهمية من مفاصل حياة علي عليه السلام ، ورافدا غزيرا من روافد بناءات شخصيته . إذ أتاح له ذلك المناخ أنموذجا سلوكيا مثاليا بفرص كثيرة للغوص في محيط مثيراته وفضاءات خبراته الأخلاقية والنفسية والاجتماعية والثقافية والمعرفية بشكل عام ،نتج عنه ذلك الانهيال الأكيد لعوامل بناء الدور الإنساني والعقائدي والفكري والأخلاقي والمعرفي والثقافي الخلاق الذي اطلع به الإمام رائدا ، معلما ، ومصلحا .

إن الفكر والعقيدة والرسالة عند علي بن أبي طالب عبارة عن رؤى فريدة للعالم ، فالذي يقرأ نهج البلاغة لا يجهد في استنتاج إن ابتسار ذلك المنظور المعرفي الخاص برؤى علي بن ابي طالب للحياة والوجود الطبيعي المادي والنفسي الاجتماعي ، يعد أمرا مؤسفا في ابسط الأحكام ، فهو الذي يقول في وصيته لابنه الإمام الحسن عليه السلام ((أي بني .. إني وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلي ، فقد نظرت في

أعمالهم ، وفكرت في أخبارهم ، وسرت في آثارهم ، حتى عدت كأحدهم ، بل كأني بما انتهى الي من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله .... الخ)) ، لذا من الواجب الالتفات للبحث في هذا الحقل الواسع من فلسفة المعرفة عند الإمام علي عليه السلام بتتالي الجهود البحثية وتضافرها ، ولعل البحث الحالي يشكل مع غيره من الأبحاث نواة جادة في هذه السبيل ، لاسيما إن متغير رؤى العالم من المتغيرات المعاصرة في الأدب السيكولوجي الذي يضيء البحث فيه الكثير من جهود الإمام وإفاضاته المعرفية المبدعة والأصيلة .

أهداف البحث :

أ. دراسة واستجلاء العناصر الأساسية التي تشكل رؤى العالم World views في فكر وسلوك الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .
ب. الاستمرار في تعزيز نهج قراءة فكر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، بمنهج علمي معاصر وبلغة العلم المعاصرة .

منهج البحث وحدوده :

يعتمد منهج البحث أسلوب ((تحليل المحتوى)) بوصفه أسلوبا علميا لتحليل واستنتاج رؤى العالم في ثنايا الفكر العلوي ، وان مادة البحث تتحدد في حدود " الخطبة الغراء " في كتاب نهج البلاغة ، بوصفها عينة ممثلة لفكر الإمام ورؤاه .

مفهوم رؤى العالم :

تقوم رؤى العالم على مسلمة أساسية هي " كل شخص يرى العالم بطريقته الخاصة " ، وعلى الرغم من بساطة هذه المسلمة إلا إنها تحمل بداخلها فهما ومضمونا عميقين ، وتعد هذه المسلمة من أقدم المقولات الفلسفية وتأخذ اهتماما متتابعا في البحث السيكولوجي المعاصر. وما تشير إليه هذه المسلمة هو إن الإدراك والسلوك البشري يتأثران بمجموعة من المعتقدات والفرضيات العامة عن الحياة والواقع (Cobren,١٩٨٨) ، وهذا ما صرح به العديد من علماء النفس المعرفي من إننا كبشر عندما نتجول في العالم المحيط بنا إنما نبني نموذجنا الخاص لكيفية سير هذا

العالم . فعلى الرغم من تحقيقنا الفهم الكامل عند استقبال مثير معين إلا إن كل فرد يصل إلى إدراك معين حيث لكل فرد طريقة معينة في إدراكه للمثيرات . ويرجع ذلك لاختلاف خبراتنا الماضية ومعالجتنا للأمور التي تكون أيضا مختلفة مما يعني إننا عند إدراك مثير ما فإننا نفرض على هذا المثير نظاما شخصيا ذاتيا ليسهل علينا التعامل معه وفهمه وتطبيقه . (تراودك ، ٢٠٠٩) .
إلا إن " نيسبت " يرى إن هذا التصريح غير كاف وان الاختلاف في الإدراك بين الأفراد يرجع إلى اختلاف الأساليب المعرفية بل الأدوات المعرفية نفسها من الإدراك والذاكرة والتحليل السببي والتصنيف الفئوي والاستدلالي . ويترتب على ذلك إن الاختلاف لم يكن بسبب مواجهة جوانب مختلفة للعالم ضمن نطاق الخبرة الفردية أو بسبب تعلم معارف جديدة بل بسبب اختلاف العمليات المعرفية التي تعد جزء من المعتقدات عن طبيعة العالم حيث يستخدم الناس الأدوات المعرفية التي يمكن أن تفيد في تأسيس لمعنى العالم عندهم والتي تتلاءم مع المنظومة الاجتماعية والقيمية بل يمكن أن يكون اختلاف الناس من حيث التوجهات والمعتقدات والقيم والتفضيلات راجعا إلى اختلاف أدواتهم المعرفية في فهم العالم . (نيسبت ، ٢٠٠٥)

ويذكر كيرني Michael Kearney بان رؤى العالم World Views عبارة عن مجموعة من التصورات الذهنية والافتراضات عن العالم ، والتي تؤثر بدورها على السلوك وعلى الأمور العملية . وان رؤى العالم الخاصة بمجموعة من الناس هي طريقتهم في النظر إلى الواقع ، وهي تتكون من الصور والافتراضات الأساسية التي تخلق أسلوبا للتفكير في العالم .

و إن هنالك علاقة بين الإدراك ورؤى العالم Perception and worldviews وانه يجب على أي نظرية مكتملة لرؤى العالم أن تفسر كيفية بناء مثل هذا التمثيل الثابت والنافع للبيئة الاجتماعية والمادية ، كما يجب أن تنشأ كل رؤى العالم في عالم الواقع Real world .(أبو زيد ، ١٩٩٠)

أبعاد رؤى العالم عند الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام

لقد قدم الإمام ثقافته الذاتية المجسدة لعناصر وأدوات الثقافة الإسلامية ، للناس غايته الأولى في ذلك ، أن تتسرب ثقافته تلك لتتغلغل في طيات نفوسهم فتتشربها شخصياتهم سلوكا وأفعالا تعكس رؤاه نحو الله والوجود والإنسان .

استمد الإمام رؤاه للعالم من تلك التجربة الحياتية الفريدة التي عاشها ووفرت له وسائل سبر أغوار الطبيعة والوجود والذات الإنسانية ، لقد اعترك الإمام في حياته أوجه المواقف الحياتية جميعها فاعلا ومحركا ومستجيبا ومتلقيا . لقد استوعبت رؤاه عليه السلام آفاق الحياة الإنسانية كلها ، تلك الرؤى التي أدركت جيدا ذلك التفاعل

الدينامي المتشابك بين متغيرات الإنسان وخصائصه المختلفة وبين الله خالقه وبين محيطه الطبيعي .
لذا يجد الدارس لفكر الإمام علي عليه السلام تلك الفرادة وذلك التميز الذي توافر في محددات بناءات شخصيته ، بيولوجيا وبيئيا واجتماعيا ومعرفيا وثقافيا ، أهله ليبلور رؤى فاعلة متكاملة عن أبعاد العالم في مخرجاتها تجسيد فائق لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف . وقد ناضل طيلة حياته ليجعل تلك الرؤى أفعالا وأخلاقا وعلما يحتويه سلوك الأفراد والمجتمع عامة .

ومن خلال دراسة وتحليل الخطبة " الغراء" في كتاب نهج البلاغة ، يمكن تحديد واختزال رؤى الإمام المتعددة التي تحمل ملامح نظرية المعرفة Epistemology لديه ، التي ارتكزت على ربط المعرفة بالواقع ، والتي تحمل تصوراته للموجودات ولأسلوب المعرفة وللقيم المجتمعية التي تحدد كيفية عمل الإنسان في الحياة وكيفية رسم أهدافه وغاياته الدنيوية والأخروية . وقد تمثلت رؤى العالم عند الإمام في الأبعاد الآتية :

١. الوحدانية وعلاقة الإنسان بخالقه .

يشير الإمام في مستهل خطبته إلى حقيقة أن يكون تواصل الإنسان مع خالقه امرا واقعيا حتميا ، إيمانا منه بعزة الله وعلوه ووحدانيته وعظمته وعطاياه الجزيلة وإحسانه للإنسان ، الأمر الذي يستوجب معه عقليا ومنطقيا شكر الإنسان لله وحمده على جميع مننه ، التي لولاها تبقى سمة الإنسان الرئيسة هي الفقر والخلة والحاجة ، لذلك يقول عليه السلام ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَلاَ بِحَوْلِهِ ، ودَنَا بِطَوْلِهِ، مَانِحِ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَفَضْلٍ، وَكَاشِفِ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَأَزْلٍ.أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ، وَسَوَابِغِ ـ نِعَمِهِ، وَأُومِنُ بهَ أَوَّلاً بَادِياً))

هنا نستلهم عقيدة راسخة في رؤى الإمام يعلمها للناس – وهي من لوازم خطبه – تتمثل بضرورة الرجوع دائما إلى الواحد الأحد بوصفها فضيلة أساسية تمنع الإنسان من التعرض للحرمان وفوت الغفران من جهة ، وتمكنه من ممارسة الحياة على وفق حقائق وجودية راسخة تمنحه الطمأنينة في نفسه وقطف ثمار السواء في السلوك .

٢. التقوى ..... استجابة معرفية منطقية واقعية .

يقدم الإمام رؤاه في معنى التقوى ولماذا على الإنسان أن يسلك باتجاهها ، فيقدم العلل الحقيقية التي تسبب ضرورة التقوى وصيرورتها الحتمية إذا ما وعى الإنسان تلك المعارف وأضفى عليها معناها الأصيل ، إذ يقول ((أُوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ الأَمْثَالَ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجَالَ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وأرفع لَكُمُ المَعَاشَ ، وَأَحَاطَكم بالإحصاء ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ، وَالرِّفَدِ الرَّوافِغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ ، فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً،

ووَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً ، فِي قَرَارِ خِبْرَة ، وَدَارِ عِبْرَة، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا، وَمُحَاسِبُونَ عَلَيْهَا))

إذ إن التقوى والعمل الصالح في رؤى الإمام عليه السلام ، نتيجة معرفية واعية يدرك الإنسان المتبصر أسبابها المنطقية (الموت وسرعة انقضاء الدنيا ، والنعم الكثيرة من الله ، والتنبه الدائم لعدم نسيان الآخرة وثوابها) ، بمعنى آخر إن هنالك خارطة طريق يوجز الإمام رسمها للناس للاهتداء إلى سبيل السواء والمبادرة للعمل الصالح . ويركز الإمام في خطبته على التقوى التي يعدها من النعم الكبيرة المجهولة النافعة في الدنيا والآخرة كونها توجب الراحة في الدنيا وتجلب الطمأنينة والسكينة والنجاة من البلايا ، والاعتبار بالتقوى خير الزاد لغد الإنسان . فيقول عليه السلام :

((فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ، وَوَجِلَ فَعَمِلَ، وَحَاذَرَ فَبَادَرَ، وَأَيْقَنَ فَأَحْسَنَ، وَعُبِّرَ فَاعْتَبَرَ، وَحُذِّرَ]فَحَذِرَ، وَزُجِرَ]فَازْدَجَرَ، وَأَجَابَ فَأَنَابَ ، وَرَاجَعَ فَتَابَ، وَاقْتَدَى فَاحْتَذَى ، وَأُرِيَ فَرَأَى، فَأَسْرَعَ طَالِباً، وَنَجَا هَارِباً، فَأَفَادَ ذَخِيرَةً ، وَأَطَابَ سَرِيرَةً، وَعَمَّرَ مَعَاداً، وَاسْتَظْهَرَ زَاداً لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجْهِ سَبِيلِهِ ، وَحَالِ حَاجَتِهِ، وَمَوْطِنِ فَاقَتِهِ ...)) وفيها يقول أيضا :

((فَاتَّقُوا اللهَ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ، وَأَنْصَبَ الْخَوْفُ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ التَّهَجُّدُ غِرَارَ نَوْمِهِ ، وَأَظْمَأَ الرَّجَاءُ هَوَاجِرَ يَوْمِهِ، وَظَلَفَ الزُّهْدُ شَهَوَاتِهِ ، وَأَوْجَفَ الذِّكْرُ بِلِسَانِهِ ، وَقَدَّمَ الْخَوْفَ لِأَمَانِهِ، وَتَنَكَّبَ الْمَخَالِجَ عَنْ وَضَحِ السَّبِيلِ، وَسَلَكَ أَقْصَدَ المَسَالِكَ إِلَى النَّهْجِ الْمَطْلُوبِ؛ وَلَمْ تَفْتِلْهُ فَاتِلاَتُ الْغُرُورِ، وَلَمْ تَعْمَ عَلَيْهِ مُشْتَبِهَاتُ الأُمُورِ، ظَافِراً بِفَرْحَةِ الْبُشْرَى، وَرَاحَةِ النُّعْمَى، في أَنْعَمِ نَوْمِهِ، وَآمَنِ يَوْمِهِ. قَدْ عَبَرَ مَعْبَرَ الْعَاجِلَةِ حَمِيداً، وَقَدَّمَ زَادَ الأجِلَةِ سَعِيداً، وَبَادَرَ مِنْ وَجَل ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَل، وَرَغِبَ فِي طَلَب، وَذَهَبَ عَنْ هَرَب)) .

٣. التوجه نحو الدنيا مقابل الإقبال على الآخرة .

بعد أساسي في رؤى الإمام للعالم أن يوازن الإنسان في نفسه وسلوكه ودوافعه ، بين الواقع الدنيوي والواقع الأخروي ، حتى يتمثل في سلوكه أسلوبا حياتيا ناجعا يصل به إلى الخلاص من القيود الدنيوية والولوج إلى عوالم أرحب ، إذ يقدم معرفة بليغة عن سمات الدنيا الرئيسة وخصالها التي لابد من إدراكها وتمثلها تمام التمثل في بنية الشخصية الإنسانية وحركتها ، إذ يقول عليه السلام :

((◌ِإِنَّ الـدُّنْيَا رَنِـقٌ مَشْـرَبُهَا، رَدِغٌ مَشْـرَعُهَا، يُونِـقُ مَنْظَرُهَـا، وَيُوبِـقُ مَخْبَرُهَا، غُرُورٌ حَائِلٌ ، وَضَوْءٌ آفِلٌ، وَظِلٌّ زائِلٌ، وَسِنَادٌ مَائِلٌ، حَتَّى إِذَا أَنِسَ نَافِرُهَا، وَاطْمَأَنَّ نَاكِرُهَا، قَمَصَتْ بِأَرْجُلِهَا، وَقَنَصَتْ بِأَحْبُلِهَا ، وَأَقْصَدَتْ بِأَسْهُمِهَا، وَأَعْلَقَتِ الْمَرْءَ أَوْهَاقَ الْمَنِيَّةِ قَائِدَةً لَهُ إِلى ضَنْكَ الْمَضْجَعِ ، وَوَحْشَةِ الْمَرْجِعِ، ومُعَايَنَـةِ الْـمَحَلِّ، وَثَـوَابِ الْعَمَـلِ، وَكَـذلِكَ الْخَلَـفُ بِعَقْـبِ السَّـلَفِ، لاَتُقْلِـعُ الْمَنِيَّـةُ اخْتِرَامـاً، وَلاَيَرْعَـوِي الْبَـاقُونَ اجْتِرَامـاً، يَحْتَـذُونَ مِثَـالاً ، وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً ، إِلَى غَايَةِ الانْتِهَاءِ، وَصَيُّورِالْفَنَاءِ....))

ثم يصف لنا ما بعد الدنيا من حال ، ليضعنا على أعتاب الآخرة لندرك حجم الفارق بين الدارين ، دار المرور والمقر الخالد ، الذي يبدأ الإنسان فيه مرحلة جديدة في حياته الأخروية ، فإما السعادة الدائمة أو الشقاء اللازم . فيقول عليه السلام :

((حَتَّى إِذَا تَصَرَّمَتِ الأْ◌ُمُورُ، وَتَقَضَّتِ الدُّهُورُ، وَأَزِفَ النُّشُورُ، أَخْرَجَهُمْ مِنْ ضَرَائِحِ الْقُبُورِ، وَأَوْكَارِ الطُّيُورِ، وَأَوْجِرَةِ السِّبَاعِ، وَمَطَارِحِ الْمَهَالِكِ، سِرَاعاً إِلَى أَمْرِهِ، مُهْطِعِينَ إِلَى مَعَادِهِ، رَعِيلاً صُمُوتاً ، قِيَاماً صُفُوفاً، يَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، عَلَيْهِمْ لَبُوسُ الاسْتِكَانَةِ ، وَضَرَعُ الاسْتِسْلاَمِ وَالذِّلَّةِ، قَدْ ضَلَّتِ الْحِيَلُ، وانْقَطَعَ الأْ◌َمَلُ، وَهَوَتِ الأْ◌َفْئِدَةُ كَاظِمَةً، وَخَشَعَتِ الأْ◌َصْوَاتُ مُهَيْنِمَةً، وَأَلْجَمَ الْعَرَقُ، وَعَظُمَ الشَّفَقُ ، وَأُرْعِدَتِ الأْ◌َسْمَاعُ لِزَبْرَةِ الدَّاعِي إِلَى فَصْلِ الْخِطَابِ، وَمُقَايَضَةِ الْجَزَاءِ ، وَنَكَالِ الْعِقَابِ، وَنَوَالِ الثَّوَابِ...))

٤.التكامل الزمني مقابل التموقع الزمني :

لا يعد الزمن خاصية للعالم الخارجي فقط ، بل هو مقولة من مقولات العقل البشري وضرورة من ضرورات ترتيب خبراتنا ، فنحن نعيش الزمن ونشعر به ونتحسس طبيعته " إن الذات الإنسانية تسقط على الزمن عوالمها ، وهذا ما يؤكد ان الوعي بالزمن ينتسب إلى المستوى الداخلي للوجود " (بردائيف ، ١٩٦٨) . فالزمن هو المتغير الأبرز الذي تمارس الشخصية الإنسانية نشاطها وفعلها خلاله وفي إطاره ، سواء كان ذلك زمنا ماديا موضوعيا ميقاتيا أم نفسيا اجتماعيا وجدانيا .

لذا فقد أولاه الإمام أهمية بارزة في خطبه ووعظه وحواراته مع الآخر ، حتى انه فصل في استخدامه لألفاظ وأسماء عدة تدل على الزمن ومفاهيمه ، وبين الزمن بإبعاده وأنواعه وآفاقه المتعددة .. وقد استندت الكثير من خطبه – ومنها هذه الخطبة – في دلالاتها الفكرية والمعرفية والتربوية والسلوكية إلى الحقائق الزمنية وادراكات

الإنسان لها بوصفها واقعا معيشا وعلة من علل السلوك ودوافعه في مواقف يتخذها وأحداث وخبرات يركن إليها ويعتقدها .

فكان عليه السلام متحركا في فضاءات الزمن الذي يعيشه الفرد والمجتمع في اللحظة الحاضرة وآفاقها الآتية متغلغلا في الوقت نفسه في ماضي الإنسانية ، بمعنى انه مثلما يقف في الحاضر الموضوعي السيكولوجي للإنسانية فانه يتطلع ويتأمل الآفاق الزمنية المختلفة مستشرفا ما يكون من أمور المسلمين والناس وأحوالهم .

لقد وظف الإمام الزمن بإبعاده المختلفة في بيان الدلالة النهائية للحياة البشرية وغاياتها المستهدفة ، فقد رسم طوبولوجية الزمن الشامل للحياة الفردية والاجتماعية من خلال وصفه الدقيق للعلاقات الوثيقة والمتشابكة بين الماضي والحاضر والمستقبل .

إذ أراد أن يكون التوجه الزمني Time orientation للإنسان متكاملا تتوحد فيه أبعاد الزمن المختلفة الماضي ، الحاضر والمستقبل ، ليحدث التكامل الزمني Time integration في معطيات سلوكه بصورته المتوازنة . لذا نجد الخطبة الغراء قد حفلت بألفاظ الزمن كلها " نفسية اجتماعية ، مادية ميقاتية ، بيولوجية " ويمكن لنا عرض هذه الألفاظ وحسب تسلسل ورودها في الخطبة وهي:

((وقت ، تصرمت ، تقضت ، الأمل ، مدة ، اجل ، يوم ، مدد أعمارها ، الهرم ، مدة البقاء ، غده ، نطفة دهاقا ، علقة محاقا ، جنينا ، راضعا ، وليدا ، يافعا)) .

ويقول فيها عليه السلام : .وَقَدَّرَ لَكُمْ أَعْمَاراً سَتَرَهَا عَنْكُمْ، وَخَلَّفَ لَكُمْ عِبَراً مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ قَبْلَكُمْ، مِنْ مُسْتَمْتَعِ خَلاَقِهِمْ ، وَمُسْتَفْسَحِ خَنَاقِهِمْ. أَرْهَقَتْهُمُ الْمَنَايَا دُونَ الاْمَالِ، وَشَذَّبَهمْ عَنْهَا تَخَرُّمُ الاْجَالِ، لَمْ يَمْهَدُوا فِي سَلاَمَةِ الاْبْدَانِ , وَلَمْ يَعْتَبِرُوا فِي أُنُفِ الاْوَانِ.

فَهَلْ يَنْتَظِرُ أَهْلُ بَضَاضَةِ الشَّبَابِ إِلاَّ حَوَانِيَ الْهَرَمِ؟ وَأَهْلُ غَضَارَةِالصِّحَّةِ إِلاَّ نَوَازِلَ السَّقَمِ؟ وَأَهْلُ مُدَّةِ الْبَقَاءِ إِلاَّ آوِنَةَ الْفَنَاءِ؟ مَعَ قُرْبِ الزِّيَالِ، وَأُزُوفِ الانتِقَالِ، وَعَلَزِ الْقَلَقِ، وَأَلَمِ الْمَضَضِ، وَغُصَصِ الْجَرَضِ ، وَتَلَفُّتِ الاِسْتِغَاثَةِ بِنُصْرَةِ الْحَفَدَةِ وَالاْقْرِبَاءِ، وَالاْعِزَّةِ وَالْقُرَنَاءِ!فَهَلْ دَفَعَتِ الاْقَارِبُ، أَوْ نَفَعَتِ النَّوَاحِبُ؟ وَقَدْ غُودِرَ فِي مَحَلَّةِ الاْمْوَاتِ رَهِيناً، وَفِي ضِيقِ الْمَضْجَعِ وَحِيداً، قَدْ هَتَكَتِ الْهَوَامُّ جِلْدَتَهُ ، وَأَبْلَتِ النَّوَاهِكُ جِدَّتَهُ، وَعَفَتِ الْعَوَاصِفُ آثَارَهُ، وَمَحَا الْحَدَثَانُ مَعَالِمَهُ، وَصَارَتِ الاْجْسَادُ شَجِبَةً بَعْدَ بَضَّتِهَا، وَالْعِظَامُ نَخِرَةً بَعْدَ قُوَّتِهَا، وَالاْرْوَاحُ مُرْتَهَنَةً بِثِقَلِ أَعْبَائِهَا مُوقِنَةً بَغَيْبِ أَنْبَائِهَا، لاَ تُسْتَزَادُ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهَا، وَلاَ تُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّىءِ زَلَلِهَا))

ويقول فيها عليه السلام في صفة المتقي مايحمل المعنى ذاته : ((وَرَاقَبَ فِي يَوْمِهِ غَدَهُ، وَنَظَرَ قُدُماً أَمَامَه فَكَفَى بِالْجَنَّةِ ثَوَاباً وَنَوَالاً، وَكَفى بَالنَّارِ عِقَاباً وَوَبَالاً! وَكَفَى بِاللهِ مُنْتَقِماً وَنَصِيراً! وَكَفَى بِالكِتَابِ حَجيجاً وَخَصِيماً)) .

٤. طبيعة الخلق البشري المادية مقابل الطبيعة المعنوية .

يشير الأمام في الخطبة الغراء إلى مراحل النمو المادية البيولوجية التي يمر بها الإنسان ، من خلال وصف دقيق لظروف تلك المراحل ، يريد من ذلك التنبيه إلى إن هذه الطبيعة المادية لا تؤطرها طبيعة وظائفها البيولوجية ولا تقف عند ذلك الحد ، بل إن الله وظف خلقها لأبعاد معنوية روحية يعيش فيها دنياه دونما تضييع لذلك النمو المادي المتتابع ليتغلب على آثام المادة وطمعها حتى إذا ما أفلت مراحل النمو تلك لم يفقد شروط الامتحان ولم يبهت حين السؤال وهو يواجه الدار الآخرة ، فيقول عليه السلام

((أَمْ هذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ، وَشُغُفِ الأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِفاقاً، وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً وَيَافِعاً.ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِساناً لاَفِظاً، وَبَصَراً لاَحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً؛ حَتَّى إِذَا قَامَ اعْتِدَالُهُ، وَاسْتَوَى مِثالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وَخَبَطَ سَادِراً، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ؛ لاَ يَحْتَسِبُ رَزِيَّةً، وَلاَ يَخْشَعُ تَقِيَّةً .فَمَاتَ فِي فِتْنَتِهِ غَرِيراً، وَعَاشَ فِي هَفْوَتِهِ أسيراً، لَمْ يُفِدْ عِوَضاً، وَلَمْ يَقْضِ مُفْتَرَضاً.دَهِمَتْهُ فَجَعَاتُ الْمَنِيَّةِ فِي غُبَّرِ جِمَاحِهِ ، وَسَنَنِ مِرَاحِهِ، فَظَلَّ سَادِراً، وَبَاتَ سَاهِراً فِي غَمَرَاتِ الآلاَمِ، وَطَوَارِقِ الأَوْجَاعِ والأَسْقَامِ، بَيْنَ أَخٍ شَقِيقٍ، وَوَالِدٍ شَفِيقٍ، وَدَاعِيَةٍ بِالْوَيْلِ جَزَعاً، وَلاَدِمَةٍ لِلصَّدْرِ قَلَقاً.وَالْمَرءُ فِي سَكْرَةٍ مُلْهِيةٍ، وَغَمْرَةٍ كَارِثَةٍ ، وَأَنَّةٍ مُوجِعَةٍ، وَجَذْبَةٍ مُكْرِبَةٍ وَسَوْقَةٍ مُتْعِبَةٍ.

ثُمَّ أُدْرِجَ فِي أَكْفَانِهِ مُبْلِساً وَجُذِبَ مُنْقَاداً سَلِساً ، ثُمَّ أُلْقِيَ عَلَى الأَعْوادِ رَجِيعَ وَصِبٍ ، وَنِضْوَ سَقَمٍ، تَحْمِلُهُ حَفَدَةُ الْوِلْدَانِ، وَحَشَدَةُ الأَخْوَانِ، إِلَى دَارِ غُرْبَتِهِ، وَمُنْقَطَعِ زَوْرَتِهِ ، حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُشَيِّعُ، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ نَجِيّاً لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ الامْتِحَانِ.))

خاتمة واستنتاج :

١. إن ما تم دراسته في البحث الحالي يعده الباحث بذرة أولى للسير في طريق استكمال دراسة أبعاد أخرى لرؤى العالم عند الإمام علي عليه السلام باستقصاء وإحصاء مكنونات جميع ما احتوى عليه كتاب نهج البلاغة .
٢. إن رؤى العالم تعد ذلك الإطار الثقافي الديناميكي الذي يقرر إمكانية تمثل أية فكرة جديدة في البنية المعرفية الإسلامية .
٣. إن أطروحات الإمام ورؤاه بحق (عبر ثقافية) تحمل كل سمات العالمية الإنسانية ، إذ هي لا تتموقع في حدود البنية والثقافة الإسلامية ، بل من إيمانه بان الإسلام للناس كافة ينطلق ليعطي بعدا وتطبيقا إنسانيا عالميا لنظريته المنبثقة عن فلسفته المعرفية .

مصادر البحث :

١ . كتاب نهج البلاغة .شرح الشيخ محمد عبده ، خرج مصادره فاتن محمد خليل اللبوت ، ط ، ١ مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت ، لبنان .

٢.ابوزيد ، احمد(١٩٩٠) الذات وما عداها ..مدخل لدراسة رؤى العالم ، المجلة الاجتماعية القومية ، العدد١ ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة .

٣. بردائيف ، نيقولاي (١٩٨٦) العزلة والمجتمع ، ترجمة فؤاد كامل ، ط٢، دار النشر المشترك ، بغداد .

٤.تراودك ، برتران (٢٠٠٩)علم النفس الثقافي ، ترجمة حكمة خوري و جوزيف بو رزق ، دار الفارابي ، بيروت .

٥. نيسبت ، ريتشارد أي (٢٠٠٥)جغرافية الفكر ، ترجمة شوقي جلال ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت .

Cobren,W.W.(١٩٨٨)Worldview theory misconception research ,Monographs of the National Association for research in science teaching ,٣.Manhattan , Kansas State University .